هذا الوطن..

لم يعد لنا

هذا الوطن

لم يَعُدْ لنا

لطفي حداد

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

Email: lhadadrc@aol.com لطفي حداد

إلى أصدقائي الطيبين
الذين علموني
أن الوطن هو
بعض عيون
وبعض قلوب
وبعض أحلام
إليهم أقدّم قصتهم

الفصل الخامس

نظر الشيخ محمد زكريا إلى الجمع الجالس في مسجد الحارة قبل أن يبدأ وعظته يوم الجمعة، ثم بدأ كلامه عن الصلاة ووجوبها وفعلها في النفس.. وكان الجمع صامتاً مصغياً.. وكان هو بقامته الفارعة ووجهة النضر ولحيته الكثيفة السوداء يملأ المسجد هيبة ووقاراً وخشوعاً..

وقبل أن ينهي وعظته قال بصوت ثابت حازم:

وأود أن أشير إلى أن الطبيب عيسى السوري هو رجل طيب من أهل الكتاب وهو يخدم حارتنا بإخلاص وتفانٍ.. وقد سمعت كثيراً من العائلات المسلمة تتكلم عنه بحسن السيرة.. لوقد اعتنى بعائلتي أنا شخصياً فالشكر له باسمي واسم المسلمين في الحارة..

وصلت أنباء الوعظة لعيسى وشعر بارتياح وغبطة، فهو منذ البدء يسعى لعمل روابط وثيقة مع جميع العائلات في الحارة ومع أبناء المعتقدات الأخرى.. وكان يعلم الشباب الذين حوله الانفتاحه على الآخرين والصداقة معهم عوضاً عن العنف والشجار اليومي..

*** ٢ ***

وذات يوم قرر عيسى أن يزور الشيخ محمد في بيته..

فسأل أحد الشبان أن يدله عليه.. وحين قدّم عيسى نفسه للشيخ محمد.. استقبله بترحاب وتكريم.. وجلسا إلى العشاء معاً وتكلما كثيراً عن وضع الحارة والحالة الاجتماعية والمادية لبعض العائلات التي يعرفها الطرفان.. ثم عن الخلافات بين الشبان..

وكان الحديث سلساً فيه توافق وانسجام بين الرجلين.. ويبدو أن العمر المتقارب والذهن المنفتح والنية الطيبة والقلب العطوف هي الصفات المشتركة التي ساعدت في مزيد من التقارب والانسجام..

وبعد العشاء انتقلا إلى غرفة الضيوف وجلسا وحدهما هناك وقال عيسى بصوته الهادئ:

ـ مشكلة البشر أنهم يختلفون لأنهم لا يعرفون بعضهم حقاً والناس يخافون من المجهول ويعتبرونه شراً.. أما حين نعرف الآخر ونكتشف كم هو قريب وأنه يملك من الحق كثيراً مما نملك ـ إذا كان يحق لنا أن نقول إننا نملك شيئاً من الحقيقة ـ فالأمور تسير بشكل أفضل مما هي عليه الآن في جميع أنحاء الأرض.

ابتسم الشيخ محمد وردّ عليه بصوته الحازم:

ـ إنك تقول الحق.. فالخلافات الكبيرة تأتي من الأشخاص الكبار.. أما نحن الصغار فليس لدينا الكثير لنختلف عليه وأعتقد أن الحوار الحقيقي بين الأديان يتم على مستوى

الحياة اليومية بين الناس العاديين.. في الأمور البسيطة كما في حارتنا.. وكم نحن بحاجة إلى أن نفهم أن اختلافنا الفكري والثقافي والعقائدي قد يكون غنى للإنسانية عوضاً عن خلافات دموية أحياناً..

قال عيسى وهو معجب أشد اعجاب بفكر الشيخ محمد المنفتح:

ـ المشكلة أننا في الشرق لا نرى ولا نشعر بما يحدث في العالم.. ونظن أن جميع أهل الأرض أعداء لنا.. ويريدون أن يأكلونا حين تحين الفرصة.

مشكلتنا في الشرق هي الانغلاق على أنفسنا.. وبما أننا لا نعرف اختلافاً آخر عنا فإننا مستعدون لبذل الدم من أجل تصلبنا وصلفنا.. ولا أعرف كيف سيقبل شبابنا ـ إذا أخبرناهم ـ أن ربع سكان الأرض يؤمن بأديان مختلفة جداً عنا وربعه الآخر ملحد.

هزّ الشيخ محمد رأسه موافقاً واستوى في مجلسه ونظر إلى عيسى في عينيه مباشرة وقال:

ـ أنا أظن أن انهيار الشيوعية وتفرد الرأسمالية العالمية بمسرح الوجود يعمل الآن ردّ فعل مخيف عند الأشخاص العاديين والمفكرين على السواء.. فبسبب خوفنا من الانهيار والتضعضع نلتجئ إلى مزيد من الأصولية الدينية والتشبث

بالقشور ولا أعرف حتى متى سيستمر الوضع هكذا.. لكن ربما لسنين طويلة.. لأنه ليس هناك أية إيديولوجية بديلة حالياً..

والإنسان حين يشعر أنه ينهار من الداخل ولم يعد لديه أركان فكرية ـ ولو بشكل غير واعٍ ـ يستند إليها، يبدأ يبني حوله أسواراً من الزيف الديني ليحمي نفسه..

تحمّس عيسى للحديث وحاول أن يجمع خلاصة تفكيره السابق ليقوله بشكل مستساغ.. فصمت لحظات ثم انطلق قائلاً:

ـ أنا أظن أن الفكر الإنساني قد بدأ ثورة عنيفة مع زعماء التشكيك الثلاث في بداية هذا القرن:

نيتشه الذي أعلن موت الله وابتداء الإنسان المتفوق..

ماركس وثورته الاقتصادية ضد المتسلطين باسم الله على الجماهير الكادحة..

فرويد وثورته الجنسية كتفسير كياني للإنسان والحياة.. ويبدو أن الفكر الإنساني قد مرّ بفترة من العبثية والسأم والضياع في منتصفات القرن العشرين.. لكننا اليوم نشعر أننا نستطيع أن نؤمن بطاقات الخلق والإبداع والحب التي فينا دون موت الله.. ونرغب في إيجاد حلول اقتصادية للفقراء والكادحين دون أن نقتل الملايين كما فعلت الشيوعية الماركسية.. ونفهم

كيف تعمل غرائزنا.. ونحاول أن لا تكون إلهنا الوحيد..

أما الجواب على العبثية والسأم والضياع فهو المزيد من الشعور بأنك على حافة خطرة عليك أن تختار عندها.. إما التحليق بالإيمان والثقة المستسلمة في قلبك أو الهبوط إلى وادي المحسوسات والموت الانتحاري البطيء..

توقف عيسى عن الكلام للحظة.. ونظر الرجلان في عيون بعضهما وشعرا كم هما مختلفان ومتشابهان في الوقت نفسه وأنهما يسيران في خط واحد.. شعرا للحظة أن أبناء إبراهيم يمكن أن يلتقوا حتى خارج القدس.. أن يلتقوا في الأفكار المنفتحة وفي القدس التي داخل القلوب..

كان كلاهما يتكلم عما يؤمن ويعتقد.. ومضى الوقت وهما لا يشعران به وصار الكلام شخصياً أكثر بعد إحساسهما باقترابهما الفكري..

سأل الشيخ محمد بنبرة هادئة وجدية:

- كيف تظن أنك يمكن أن تصل لله أو تراه؟!

ابتسم عيسى وأحسّ بعمق الحديث فأغمض عينيه للحظة ثم قال بهدوء:

- قد أستطيع أن أرى الله إذا اعتزلت العالم خمسين سنة أقضيها في الصوم والصلاة والقراءات الروحية..

وقد أستطيع أن أراه إذا توقفت خمس دقائق ونظرت بعمق

في عينيّ من أحب..

قد أستطيع أن أصل للمطلق أو الكمال أو الله إذا تفرغت بالكامل للتأمل والإماتات الجسدية.. وقد أستطيع أن أصل إذا توقفت لحظة وأصغيت بكل قلبي لأغنية عصفور..

يعتقد المتصوفون أن الوصول إلى الله يكون عن طريق موت الحواس.. أي فقر الجسد.. فقر الذات.. فقر الإرادة.. وهم يشاركون بذلك كثيراً من أبناء الأرض الذين يعيشون ذلك بغير إرادتهم..

ويعتقد الأغنياء أن الوصول إلى الكمال يكون عن طريق تنبه الحواس والتشرب من غنى الحياة.. أي الغنى المادي والتمتع بجمالات الفنون والآداب ولذات الطعام والشراب والجسد.. ويظهر أن الجميع يصلون إلى المطلق الكامل بطريقة أو بأخرى.. لأن كل إنسان معهما كان مبدؤه هو منفتح على الله المطلق.. الكامل.. الفقير.. الغني.. المترفع عن كل الأحاسيس والمنغمس في كل ما يعيشه البشر..

تحرّك الشيخ محمد في مجلسه وتحمّس أكثر للنقاش الذي يدور بينهما وقال بتعجب:

- إذن ليس هناك ثواب عقابا.

ابتسم عيسى وقال ممازحاً:

ـ بدأنا مؤمنين وسنخرج ملحدين. . لا. . لا الموضوع مختلف. المشكلة أننا حين نتكلم لغة بشرية لها مفاهيم ومدلولات مختلفة حتى بين أبناء اللغة الواحدة ومرتبطة بالتاريخ الفكري والثقافي للمجتمع. . فكيف إذا استعملناها بخصوص المطلق. .

فعدل الله ـ والحمد لله ـ مختلف جداً عن عدل القضاة. . وعقاب الله ـ والحمد لله ـ مختلف جداً عن عقاب الشرطة. . فعقاب الله لمجرم قد يكون مزيداً من المحبة والغفران إلى درجة ترغم المجرم على ترك الخطيئة التي يعانقها ويلبسها. وإن موضوع الملكوت الأبدي أو الفردوس ليس مسألة أوسمة وجوائز وحوريات. . بل هو في رأيي عيد للأبناء الضالين وفرح يتخطى ملذات المادة وجلوس إلى مائدة الآب يتجاوز كل عدالة وكل خطيئة وكل تصنيف. .

ضحك الشيخ محمد بشكل مقتضب وقال:

ـ لكن يا عيسى من يقبل هذا؟! أن يلبس الله الحلة الأحلى لأخينا «الشرير». . ويضع خاتماً في إصبع أختنا «الضالة». . كما يقول كتابكم. . من يقبل أن يجاهد حياته كلها ولا يتلقى «وسام العبد البار». . هذا صعب حتى عليّ. .

هزّ عيسى رأسه موافقاً وقال:

ـ هذا عسير علينا نحن البشر. . لكن الرجل الذي يريد أن يطهّر قلبه بالخير الكامل يتمنّى الخير للجميع ويسعى إليه ويجاهد من أجله كما يفعل ذلك لنفسه. . وفي النهاية رجاؤنا أن تكون جهنم فارغة. .

ابتسم الشيخ محمد وقال بتعجب:

ـ هذا جميل حقاً. . رغم أنه لم يخطر ببالي.

فتدراك عيسى قائلاً:

ـ والشيء الآخر الذي أحب أن أقوله اليوم قبل أن أستأذن بالانصراف لأن الوقت قد تأخر فعلاً:

يختلف البشر منذ آلاف السنين حول الله. . ويظهر أن اختلافهم شديد جداً إلى درجة أنهم يسيلون الدماء في كل مكان من الأرض بسبب الله. .

وإن كلاً من عشرات الأديان والمعتقدات والتيارات داخل تلك الأديان والمعتقدات يؤمن أن الله له وحده. . وأنا أتساءل دوماً. . هل وقف أحد يوماً وسأل الله:

ـ أين تريد أن تنتمي؟!

ابتسم الشيخ محمد ونهض عيسى وقد علا البشر وجهه وتصافحا بحرارة. . وقد عيسى مودعاً:

ـ المرة القادمة دورك في الزيارة. . غرفتي يعرفها جميع الشبان. . فقد اسأل أي واحد منهم ليدلك عليها. .

ـ أعدك بزيارة قريبة. . لقد استمتعت حقاً بالحديث معك. . ويبدو أننا سنصبح أصدقاء. .

ـ سلامي للجميع.

الفصل السابع

* ١ *

كانت العادة أن يجتمع عيسى مع شبان وشابات الحارة يوم الأحد بعد الظهر ليتكلموا عن مشكلاتهم وعن بعض التساؤلات التي تمرّ بأذهانهم ويتناقشوا حول بعض الصعوبات التي تعترض سبيل حياتهم اليومية..

وكان يرافق عيسى إلى هذه الاجتماعات عادة رانيا وهي إحدى الصبايا اللواتي بدأن يساعدن في تحضير الاجتماعات والقيام بالرحلات وزيارات العائلات منذ ثلاث سنين وكانت محبوبة من الجميع هناك لأنها بطبيعتها تحبّ أن تصغي.. ومن أكثر من الشبان الصغار بحاجة للإصغاء إلى مشكلاتهم باهتمام خصوصاً أمورهم العاطفية واضطراباتهم النفسية اليومية في المدرسة والعمل والبيت..

في ذلك الأحد قرّر عيسى أن يتكلم عن الألم وكان باسم قد حضر إلى اللقاء رغم ضعفه بتشجيع من عيسى..

كان بسام قد أنهى الدورة الثانية لعلاجه الكيماوي وكان كثير من شعره قد تساقط فاضطر إلى أن يضع قبعة كل الوقت وكذلك تساقط شعر حواجبه وشحب لونه وهزل جسمه فصار كأنه شخص مختلف.. لكن عندما يتكلم فإنه ما يزال

هو هو بظرافته وخفّة دمه وطيبة قلبه..

كانت الساعة الثالثة بعد الظهر.. الجو ربيعي جميل.. والسماء زرقاء صافية لا أثر فيها لغيوم.. وضع الشبان ثلاثين كرسياً في قاعة الكنيسة حيث كان تمثال العذراء الكبير يحتلّ الزاوية القصوى وقد اعتاد عيسى أن يحييها كلما مرّ بها..

حضر إلى اللقاء كثير من أصدقاء باسم ليروه وقد اضطر البعض يومها للوقوف طيلة الوقت بسبب الازدحام..

ابتدأ عيسى اللقاء بهذه القصة:

- مدّ الرجل الطاعن في السن رأسه من نافذة الصومعة الحجريّة.. كان رأسه مدوّراً ولحيته كثيفة بيضاء ثلجية.. وهناك بعض الأشعار المتناثرة تحمي رأسه من برد ليالي تشرين..

قال: من أين جئتم أيها الشبان وماذا تريدون؟!

أجبناه.. جئناك يا جدنا الكبير نبحث في سرك المدفون؟!

ارتدى الرجل المسن عباءته البيضاء وخرج إلينا وجلسنا على صخرة أمام الصومعة، وكانت الشمس تغيب خلف الأفق وابتدأ الكلام..

كان أبي يعمل سائقاً لقطار.. وكثيراً ما كنت أقضي الليل مع أمي وحيدين في بيتنا وكانت أمي تحدثني عن عصفور أبيض أسطوري وحين بلغت العاشرة أعطتني أمي

عصفوراً أبيض خشبياً يشبه ذاك الذي في حكاياها..

وكبرت مع الحياة.. وحين بلغت الخامسة عشر سمعت من الناس أن الله يقتل الخاطئين ويحرقهم فعدت إلى بيتي غاضباً وقطعت رأس العصفور الأبيض..

وحين بلغت العشرين من عمري قرأت نظرية التطور وأسرار المجرات والهندسة الوراثية فصرت رجلاً عقلانياً وما عدت أحب التحليق في عالم السماء فقطعت جناحي هذا العصفور الأبيض..

وحين صرت في الخامسة والعشرين كرهت التقاليد الدينية والطقوس الطائفية التي تخلق الكثير من الاختلافات والحروب فبترت ساقي هذا العصفور الأبيض.. وفي يوم عيد ميلادي الثلاثين قتل الزلزال أهلي كلهم فأمسكت العصفور الأبيض ونتفت له ريشه كله ونظرت فيه فإذا به لم يبق منه إلا قلب أحمر..

وسكت عيسى هنا للحظات فنظر الشباب في عيون بعضهم البعض وخرجت همسات من هنا وهناك.. ثم قال أحدهم:

- أعتقد أننا نحتاج لبعض الشرح..

قال عيسى: هكذا فسّر لنا الشيخ قصته.

العصفور الأبيض هو الصنم الذي وصلني من إيمان أجدادي، علموني أن الله قاسٍ حارق قاتل لكنني اكتشفت

رحمته وحبه وحنانه.. وأورثوني عقلاً متحجراً لا يفهم إلا ما يرى لكن نعمة الله فتحت ذهني لأفهم ما لا أرى..

وضيعوني في تقاليد لا تحصى.. إلا أنني تعلمت كيف أبحث عما وراء تلك التقاليد والطقوس من معنى..

وعلّموني أن الله يطيلُ الأعمار وينجب للعاقر طفلاً ويطعم الجياع وينصر الشعوب المغلوبة ويزوج الشباب الفقراء ويرجع المهاجرين إلى أهلهم.. إلا أنني وجدت أننا نرمي على الله خيبات أملنا وفشلنا ونستسلم كي لا نتخطى صعوباتنا وآلامنا..

لم تمضِ ثلاثون سنة من حياتي إلا وكنت قد فقدت كل شيء من إيمان أمي وأجدادي.. فقدت كل شيء من هذا الصنم الأبيض لكنني بدأت أرى الأمور بشكل مختلف وكان قلبه الأحمر دليلي إلى الحق.. وأنا منذ خمسين عاماً ما عدت أذكر من حكايا أمي! لا هذا القلب الأحمر.. وأنا منذ خمسين عاماً ما عدت أهتم إلا بهذا القلب الأحمر..

بقي الشبان والشابات لدقائق مذهولين يحاولون أن يجدوا المعنى والمقصد من وراء حكاية عيسى.. فشعر عيسى أنه يلزمهم مزيد من الإيضاح فقال:

- أردت أن أقول لكم من خلال هذه القصة أننا نتّهم الله بالمصائب التي تلمّ بنا وغالباً ما نستسلم لها لأننا نفكّر أنها آتية من الله.. لكن هذا الشيخ المسنّ قد تعلّم عبر

السنين أن يقطع الأجزاء الإضافية من العصفور.. أن يزيل الشوائب عن إيمانه.. أن يدخل إلى القلب ويصل إلى العمق ويفهم أن الله رحمة وحب وكل ما عدا ذلك قشور وريش وأجنحة وأرجل قد تفيد لتكوين صورة ما عن الله لأننا بشر وبحاجة إلى تصوّر لنفهم.. لكن الدعوة هي إلى الأعمق.. إلى اللاتصور.. إلى اللافهم.. مع استسلام التام بثقة للرحمة وللحب. أنتم تذكرون يعقوب.. ربما لم نجد الجواب على سؤالنا حول موته لكن كريم قال يومها: أنا لا أؤمن بإله يقتل الأطفال..

وأضيف أنا اليوم:

- أنا لا أؤمن بإله يسبب سرطان الدم لباسم.. بل أؤمن بإله كله رحمة وحب ويدعوني ويدعوكم للتخطّي.. لتجاوز الألم.. وللإيمان بأن مرضه ريش عليه انتزاعه ونتفه للوصول إلى القلب الأحمر..

أطرق باسم ونظر الآخرون في وجوه بعضهم البعض فهذه هي المرة الأولى التي يكون فيها الكلام على هذا المستوى من الصعوبة.. واخترق صوت كريمة صمتهم:

- أعتقد أنه لا معنى للألم إلا تحطيم الإنسان.. ربّما من الصعب أن تتحمل ألمك.. لكن هل تتوقع الجنون الذي يعتريك حين تجد شخصاً تحبّه يتألم.. أنا لا أستطيع أن أتحمل ألم نفس سكنت فيّ.. أنا...

واختنقت الكلمات في حنجرتها ولم تستطع أن تكمل أكثر وانفجرت بالبكاء وخرجت إلى غرفة جانبية.. فلحقت بها رانيا وحاولت أن تهدئها قائلة:

- كريمة.. أرجوك على الأقل من أجل باسم حاولي أن تضبطي نفسك.

أجابتها كريمة وهي تجهش بالبكاء:

- لا أستطيع.. لا أستطيع.. هل ترينه كيف يموت أمامي.. قد خسرت أمي وعشت كل هذه السنين بلا عطف ولا حب.. والآن يريد الله أن يأخذ مني.. كفانا كلاماً.. كفانا كلاماً.. أنا لا أقبل.. أنا لا أقبل..

اقتربت منها رانيا ومسحت دموعها وضمتها إلى صدرها وقالت لها:

- أنا أفهمك وأقدر ألمك.. لكن على الأقل تعالي الآن معي لنكمل اللقاء.. أنت لا تريدين لباسم أن ينهار.

وبعد دقائق هدأت كريمة وعادتا إلى القاعة معاً..

كان الجميع صامتاً ولا شيء يسمع إلا زقزقة عصافير بعيدة. وقال عيسى بعد صمت غير قصير:

- الألم والموت شيئان أكبر من الفهم.. وقد حاول كبار الفلاسفة واللاهوتيين أن يجدوا كلمات بشرية ليشرحوا قصد الله منهما.. لكن لا أعتقد أنكم ستصلون إلى جواب

مقنع حتى حتى لو قرأتم كل كتب الفلسفة واللاهوت.. لذلك أقترح أن نفكّر بطريقة أبسط.. دعونا نصغي إلى قلوبنا.. انسوا البحث عن أي جواب.. انسوا الأسئلة.. فقط اسمعوا صوت هذه العصافير.. تنفسوا هذا النسيم.. وأصغوا إلى قلوبكم.

بقي ذكي شارد الذهن يتحرك في كرسيه وينظر هنا وهناك ثم ضاق ذرعاً بالصمت فقال:

ـ أنا لا أريد أن تكون هذه الحياة مجرد مسرحية تسدل عليها الستارة عشوائياً ويهرب الممثلون والمتفرجون.. لكن يبدو أن الأمور تسير بهذه السخافة..

قال له عيسى بهدوء:

ـ ذكي.. أنا أحترم كلامك لكن حاول أن تصغي إلى قلبك وليس إلى أفكارك..

بعدها بدأ كل شخص يعطي رأيه فقال جودت:

ـ قد قرأت كتاباً عن ألم الله ورغم أنني لم أفهمه جيداً إلا أن الخلاصة تقول: إن الله يتألم فينا وألمه أزلي... مناقشة الكتاب لاهوتية وفلسفية صعبة ويبدو أن أدياناً أخرى لا توافق على هذا الرأي..

ردّ عيسى عليه:

ـ كما قلت لك يا جودت.. حاول أن تصغي إلى قلبك..

إن أجوبة التساؤلات العظمى في الحياة قد طبعها الله في قلبك وعليك فقط أن تصغي لتفهم..

قالت رانيا:

ـ أحب أن أشارككم ما فهمت..

منذ خمس سنين كان أبي على عتبة الموت بسبب قصور في القلب وعندما تقدم مرضه وساء، صار غير قابل على التنفس بسهولة وكان عليه أن ينام جالساً في كرسيّ لشدة ضيق نفسه وكنا نتناوب أنا وإخوتي السهر قربه في الأيام الأخيرة خوفاً من أن يقف تنفسه فجأة.. صار هذا هاجسنا ووسواسنا فكنت أراقبه كل الوقت وحين تمرّ الساعات تضجّ برأسي الأفكار وأشتعل غضباً وجنوناً فما هذا الموت بالاختناق.. كيف يرضى الله بذلك.. وكانت كل ليلة من تلك الليالي وقتاً طويلاً للتفكير والكفر والثورة والجنون.. وحتى الآن لم أجد أجوبة على معظم أسئلتي لكنني لا أنسى تلك الليلة التي كنا جالسين فيها وقد ازدادت صعوبة تنفسه وبدأ يشعر باقتراب النهاية وإذ بي أسمعه يناديني بصوت خفيض لشدة تعبه؛ قلت له:

ـ ما بك يا أبي؟

قال ببطء وهدوء:

ـ أحب أن أقول لك شيئاً.

اقتربت منه أكثر كي لا يجهد نفسه.. قلت له:

- إنني أسمعك يا أبي.. قل لي ما تريد.

قال لي:

- اذهبي وأيقظي أمك وأخوتك لأنني أريد أن أتكلم معهم.

اندهشت لطلبه وقلت له:

- الوقت متأخر يا أبي وكلهم نائمون.. هل هناك شيء ربما أستطيع أن عمله لك بمفردي..

قال لي ملحّاً:

- أرجوك.. أيقظيهم فإنني أريد أن أقول لهم شيئاً..

فأطعته وذهبت وأيقظت الجميع واجتمعنا نحن الخمسة مع أمنا حوله.. وقد استغرب الجميع ما يحدث رغم أنهم شعروا أن النهاية قريبة..

نظر أبي إلينا.. ومدّ ذراعيه على اتساعهما وشبكهما بذراع أمي على يساره وذراعي أنا على يمينه ونحن بدورنا فعلنا مثله مع بقية أخوتي ثم قال لنا:

- كما نحن واحد الآن سنبقى واحداً إلى الأبد.. أنا ذاهب الآن لكننا سنلتقي ذات يوم.. أنا أحبكم جميعاً وأنا لا أندم على حبّي لكم كل هذه السنين فأنتم الحقيقة الأكيدة التي لا أندم عليها.. ولأنني أحبكم فأنا لا أموت.. وسأبقى معكم وسنكون واحداً للأبد..

خنقتنا العبرات ساعتها وشددنا على أذرع بعضنا البعض وقبلناه وقبلنا بعضنا البعض طويلاً.. طويلاً..

مات أبي بعد أيام.. وها هي خمسة أعوام مرت وأنا أشعر كل يوم بقرب والدي الشديد مني.. بوجوده معي.. بوحدته معي.. بحبه.. أنا لا أعتقد أنني سأجد كل الأجوبة لتساؤلاتي الكثيرة لكنها لم تعد مهمّة منذ ذلك اليوم لأنني أفهم أنه مات ليصير أقرب.. غاب عن عيني ليسكن في قلبي.. سافر قبلنا ليعدّ اجتماعنا من جديد..

أحب الحاضرون الطريقة التي حكت فيها رانيا قصتها وساد هدوء للحظات ثم انكسر الصمت بصوت باسم يقول:

- ربّما من الشاق ما أشعر بأن حياتي تضيع وأحلامي تموت.. وربما في لحظات كثيرة تبادرت إلى ذهني أفكار كفر ورفض لوجود عدل إلهيّ.. ربما لا أفهم حتى الآن لماذا تتمتع جدتي وهي في التسعين بصحتها أكثر مني وربما لم أجد الجواب على أي من تساؤلاتي حول الألم والموت والفشل لكن أذكر الآن ما قاله عيسى مرّة لي قبل أن أمرض.. «هناك شيء أسوأ من الموت هو الحياة بدون حب وبدون أن نقول للذين نحبّهم: إننا نحبّهم..» لذلك فإن الجواب الذي أسمعه في عمق قلبي الآن هو هذا: إنني أحبّكم وأرجو أن تغفروا لي سيئاتي الماضية..

لم يتمالك بعد ذلك أحد نفسه بل انفجر الجميع

بالبكاء واقتربوا من باسم وصار يضمّونه ويقبّلونه ثم صاروا يقبّلون بعضهم البعض ويستغفرون بعضهم البعض..

وأحسّ عيسى بنشوة فرح وتعزية تملأ كيانه فاندفع إلى الوسط والبِشْرُ يطفح من وجهه وقال لهم:

ـ أريدكم أن تعملوا بأذرعكم الممدودة والمتشابكة مع بعضها دائرة على محيط القاعة.. انسوا أجسادكم.. انسوا أقدامكم.. فقط اشعروا بالأذرع المتشابكة.. وابدؤوا الرقصة التي تعلمناها.. دعوا أجسادكم للهواء وأقدامكم للحياة.. ودعونا نرقص..

وكعادته ظهر فاروق في الوقت المناسب، وابتدأ الغناء بصوته الشجي وكلماته المغلوطة لكن بنغمة قريبة إلى اللحن الأصلي.. وعلت الأصوات بالغناء مردّدة خلفه أو معه الأغاني الشعبية.. واهتزت الأرض تحت أقدام الشبان والشابات ثم بدأ بعض الأهالي ممن يعيشون حول الكنيسة بالإقبال على صوت الأغاني ثم بالانضمام إلى حلقة الرقص.. واقتربت أم سميرة لترى ما يحدث وسرعان ما اشتركت معهم.. ثم أشارت عليهم أن يحملوا باسم وعيسى على أكتافهم ويرقصوا بهما في وسط الحلقة فعملوا برأيها.. ثم خرجوا إلى الشارع الرئيسي للحارة لأن عدد الراقصين زاد كثيراً ولم تعد القاعة تتسع لهم واشترك كثير من الأطفال والعجائز والرجال والنساء.. وسرعان ما امتلأ الشارع الرئيسي

كله.. وخرج كثير من الناس إلى شرفاتهم وبعضهم فتحوا النوافذ وصاروا يرشون الأرزّ والملبّس على الراقصين وعلت الزغاريد من هنا وهناك وكأن الناس في حفلة عرس.. واستمرّت الدبكة ساعتين أو أكثر حتى بدأ الظلام يخيّم على الحارة.. بعدها بدأ الرقص يهدأ والناس يتفرقون عائدين إلى بيوتهم..

* * *

الفصل الحادي عشر

* ١ *

المطلوب هو أن تغلق الأفكار
لأنها أوسع من مساحة الشريعة
وأن يلغى السبت الإنسانَ
لأنه لا يجوز أن تنتهكَ حرمةُ السبت.
آهٍ يا الله
أين أنت
لقد أغلقوا كل شيء..
والمطلوب هو أن يغلقوني
أغلقوا كل السواقي
لأن النبع لا يجري وفق قوانين طبيعتهم
نعم.. إنهم يغلقون شعورهم بالخيبة
كل ما يحدث غريب
وفوق تصوري
فأن تموت كل الأحلام في ساعات قليلة
وأن أطارد وأهرب فقط كي أعيش
هذا صعب علي يا الله..

ولماذا أهرب
وحتى متى أهرب..
هذه أرضي ولن أتركها
هؤلاء ناسي وأصدقائي ولن أتركهم..

مرّ يوم الاثنين ثقيلاً ثقيلاً على عيسى وهو مختبئ في بيت قريبه في المدينة.. دخل الخوف قلبه وهو قابع في غرفة على السطح.. وسكن الرعب في الزوايا..

لم يزر النوم عينيه..

ومرّت الساعات بطيئة محملة بالضيق والضجر والقلق المنتظِر.. تذكر مع قريبه سنوات حياته.. وشعر أنه لم يتغير كثيراً:

«فأنا أبحث عن نبوءة تصلب
وعن سيدة بحجم الكون لا تملّ من حبي..
أبحث عن سماء لا تلغيها غيوم
وعن ربيع لا يلغيه برد
وما تزال الدرب طويلة..».

هذا ما كتبه منذ عشر سنين.. ويبدو أنه يعيشه الآن في ملئه..

جاءه قريبه عماد ببعض الأخبار.. كان قسم منها مؤلماً والآخر يدعو للسلام.. لكن يبدو أن العودة قد صارت صعبة

والأحلام قد بدأ الموت يلعنها والأيام الماضية ستصبح ذكريات.. واقترب عماد منه وجلس قربه على الأريكة الوحيدة في غرفتهما، وقال بحزم وجدية:

- أرى أنك تضيع الوقت هنا.. عليك أن تهرب.

أطرق عيسى رأسه وأغلق عينيه مفكّراً.. ثم قال بعد صمت لحظات:

- إلى أين أذهب.. هذه هي أرضي.. هذه بلدي.. هذا وطني.. كل تاريخي هنا.. كل معنى حياتي.. كل أحلامي.. كل أصدقائي.. وأحبائي..

قاطعه عماد بنبرته الحازمة:

- أفهم ما تقول.. لكن يبدو أنهم يريدون إحراقك.. صدقني لن تفلت منهم.. وإذا أفلتّ هذه المرة فسيجدون مصيدة أخرى.. هؤلاء المتسلطون قذرون ولن يسكتوا عما تعمله في «مملكتهم»..

- لا أعتقد أنهم سيؤذونني أو يؤذون ذكي.. لقد ساعدته مرة في الماضي بمجرد زيارة قصيرة وكفالة.. لا تنسَ أنهم يحترمون المثقفين الذين يخدمون الوطن بإخلاص..

افترّ ثغر عماد عن ابتسامة ساخرة ثم قال:

- الأمور ليست بهه البساطة.. والدخول ليس كالخروج.. صدقني يا عيسى.. لا تضيّع شبابك هنا.. ليس من

يستحق حياتك غيرك أنت.. وإذا رضيت فإنني أتدبر إخراجك إلى بلد مجاور وهناك تبدأ حياتك بعيداً عن الناس وهمومهم ومشاكلهم.. أنت شاب صغير ولا تعرف من الدنيا مرّها وألمعها.. أنت طيب وستحترق هنا..

تنفّس عيسى بعمق ونظر في عيني عماد فلمح الصدق والقلق لكنه قال بتصميم أكيد:

- لن أهرب من وطني..

هذه هي أرضي وسأبقى هنا من أجل الناس وأجل أصدقائي.. كل بلاد الأرض لها عيوب ونواقص..

ثم إنني أحب هذه الأرض..

وأحب الناس.. إنهم طيبون ويستحقون الخير

أنا أغفر لجميع الذين يريدون الشر لهذه الأرض لأنهم لا يعرفون قيمة الأرض والوطن..

وقف عماد منتصباً وسار إلى النافذة ونظر للخارج ثم قال بمرارة وألم:

- لم يترك الأشرار للطيبين شيئاً في هذا البلد.. أنظر كيف أعيش هنا وحيداً متروكاً أقرض الشعر لنفسي كما يقرض الجرذ باب غرفتي.. والمواضيع التي أكتب عنها محددة وإذا تجاوزتها بكلمة واحدة أخسر حياتي ومستقبلي.. أنت يا عيسى خيالي.. لا تعرف أين تعيش.. هل تظنهم

سيقدرون خدمتك للناس ولوطنك.. أرجو أن أكون مخطئاً وأن تكون تجربتك أفضل من تجربتي..

هزّ عيسى رأسه ومطّ شفته السفلى ثم وقف منتصباً واقترب من عماد ووضع يده اليمنى على كتفه وربت عليها وقال بتصميم وقوة:

ـ هذا وطني.. وإنني أحبه وسأبقى هنا لأنني سأموت إذا خرجت من أرضي.. أنا لم أعد خائفاً.. ولن أهرب.

وابتسم عيسى واستأذن عماد وخرج..

❋ ❋ ❋

كان صباح الثلاثاء متجهماً غائماً بارداً.. وكان عيسى ما يزال يبحث عن بعض نور يطل عبر ليله الطويل الذي قضاه يفكّر بانقباض وألم تارة.. وانبساط وفرح تارة أخرى.. كان الخوف يقول له: اهرب.

وحبه لأرضه والناس يثبتان عزمه..

ومضت الساعات متقلقلة بين الهروب والثبات..

وأطل الصبح بعد صراع طويل..

كان شارداً غارقاً في تفكيره حين سمع عماد يقول له:

ـ أسمع صوت قرع على الباب..

هل تنتظر أحداً.. ترى من الطارق في هذه الساعة من الصباح..!!

مشى عماد متمهلاً ونظر من ثقب الباب فرأى مجموعة من رجال الشرطة مع بنادقهم يتحركون حول الغرفة.. فصرخ بعيسى بصوت خفيض أن يهرب من النافذة الخلفية.. لكنه لم يفعل بل اقترب إلى الباب بنظرة ثابتة رغم خفقان قلبه السريع والرعشة التي سرت في أوصاله.. ثم فتحه وقال لرجال الشرطة:

ـ من تريدون أيها الرجال؟!

صاح به أحدهم:

ـ نبحث عن الدكتور عيسى السوري ونعتقد أنه مختبئ هنا..

واقترب عماد ومدّ رأسه وقال بحزمه الاعتيادي:

ـ هل لديكم أمر بتفتيش البيت أو القبض على الدكتور عيسى؟

ضحك الضابط وهو ينظر للمساعدين وقال بسخرية:

ـ لا يحق للهاربين من القانون أن يتمسكوا بالقانون.. أرنا هوياتكما..

اقترب عيسى للأمام ثم قال بصوت ثابت وهدوء غريب:

ـ أنا هو.. أنا ذاهب معكم.

❋ ❋ ❋

* ٢ *

دفع الرجال عيسى بفظاظة وخشونة ووضع في يديه الأغلال وساقه آخران إلى السيارة.. وحين وصلوا إلى مركز التوقيف زجّوه في غرفة صغيرة باردة تفوح منها رائحة العفن.. ربما بسبب الجدران المهترئة المتساقط دهانها.. أو بسبب المرحاض الكائن في الزاوية اليسرى والذي لم يكن يستره باب أو حتى قطعة قماش.. ونظر عيسى إلى النافذة الصغيرة التي في أعلى الغرفة والمغلقة بإحكام بقضبان من الحديد فرأى نوراً ضعيفاً ينبعث من خلالها.. ثم راح ينظر في وجوه الأشخاص المعتقلين مثله.. كانت وجوهاً متعبة مليئة بالقلق وكانت رائحة الدخان تزيد الملل الساكن في الجدران والدقائق..

رفع عيسى يده وسلم على الجميع.. ثم لفت نظره شخص تكوم في الزاوية اليمنى للغرفة، وبدا له أن شكله مألوف لديه.. فاقترب منه فإذا به ذكي واضعاً رأسه بين ساعديه ومكوماً على نفسه.

ربت عيسى على كتفه قائلاً:

- مرحباً يا صديقي.

رفع ذكي رأسه ونظر مندهشاً:

- عيسى!! ماذا تعمل هنا؟

- أنا هنا لأنك أنت هنا.. شرف الصداقة أن تجعل الأصدقاء متشابهين..

جلس عيسى إلى جانبه.. ومرت دقائق طويلة لم ينبس فيها ذكي ببنت شفة، ثم خرق الصمت صوت عيسى قائلاً بسخرية:

- يبدو أن ليلتنا أنس.. أنظر هذا الجمال ملءَ عينيك، وتنفّس هذا العبق الفوّاح ملء رئتيك.. وابتسم.. أنت في بيت الحكومة..

ردّ ذكي بعصبية:

- إننا مرميون هنا كالكلاب وأنت تمزح..

وأراد عيسى أن يخفّف عنه أكثر فقال بتهكم:

- يا عيني على الصبر يا عيني عليه، يا صديقي..

فردّ ذكي بصوتٍ عال وقد بدا منهاراً:

- توقّف عن السخرية والمزاح.. إنني أرتجف من البرد وليس هنا أي فراش أو لحاف.. كيف سننام؟!

قال له عيسى ـ ويبدو أن نوبة من الفكاهة الساخرة قد طغت على كل كلامه ـ:

- هناك ما هو أسوأ.. أن يكون توقيفنا على عهد الرومان ويكون غداً بانتظارنا بعض النمور الجميلة لتناوشنا وتغازلنا..

ـ يبدو أن هذه الأحداث قد حسّنت مزاجك..

ـ كل شيء جائز.. لماذا أنت متوتر وعصبي؟!

اسمع.. تحضرني قصة جميلة دعني أخبرك إياها.

ـ لا أريد أن أسمع.. أريد أن آكل فأنا جائع..

ـ لا أعتقد أنهم سيحضرون لك عشاءً خاصاً ساخناً من عند الست أم جهاد.. لذلك حاول أن تنسى واسمع هذه القصة:

كان هناك في غابر الأزمان مجرم سفاح قد قتل كثيراً من الناس.. وذات يوم ألقي عليه القبض ووضع في السجن.. وحُكم عليه بالإعدام.. وفي الليلة ما قبل تنفيذ الحكم، لم يستطع أن ينام لخوفه من الموت.. وصادف أن كان حكيم شيخ في الغرفة المجاورة هناك.. فأحس بقلقه.. وراح يسأله عن مشكلته فقصّ عليه المجرم قصة حياته كلها وأخبره أنه لا يستطيع النوم فقال له الحكيم:

ـ يا بني.. الماضي الذي قصصته عليّ قد انتهى.. والغد لم يأتِ بعد.. فكر الآن بلحظتك الحاضرة.. انسَ الأمس والغد وعش لحظتك الحاضرة..

فهدئ بال المجرم وخلد إلى النوم.

ابتسم ذكي للحظة ثم سأل عيسى:

ـ وماذا حدث في اليوم التالي؟!

ـ أظنّ أنه أُعدم!

ـ إذن ما الفائدة من حكمة الحكيم؟

ـ على الأقل قد عاش ذاك الرجل لليلة واحدة اللحظة الحاضرة.. على الأقل قد نام بسلام ليلة واحدة قبل أن يموت.. وربما كانت تلك الليلة هي الساعات الوحيدة في حياته التي عاشها كلها.. بعمقها.. وبسلام..

ـ أرجو أن تفيدنا حكمتك غداً أمام القاضي..

ضحك عيسى حين سمع كلمة القاضي واستوى في مكانه وراح يقول:

ـ آه.. كم أنا مشتاق أن أرى سيدي القاضي.. كم أنا مشتاق لوجهه المنير.. سأقول له: أسعفني ونوّرني بطلعتك الإلهية يا سيدي القاضي..

كم قد قيل لي عنك وعن حسنك وروائك.. وعن شمائلك الفاضلة ونبلك المتناهي وعدلك الصادق وحكمك الرصين.. لماذا لا نراك بيننا كثيراً يا سيدي القاضي..

أعرف أنك مشغول بهموم الناس وجرائمهم التي لا تنتهي.. وأنت جالس على كرسيّك ـ أيها المنزّه عن كل خطأ ـ لتحكم بالعدل بين الناس وتعطيهم الغفران والمحبة.

من أين لي أن أحظى بوقتك الثمين.. أستحلفك بالله

يا سيدي العادل أن تقول ما لديك بشأني. فأنا واقف أمامك وأمام الله.. أنتظر الحل والربط.. عن خطايا شبابي وجرائمي الحاضرة ونواياي السيئة في المستقبل..

وما أتم عيسى كلامه حتى صدرت ضحكة عالية من ذكي وتبعتها ضحكات وقهقهات من الرجال الموقوفين معهما.. وسرعان ما ساد جو من السخرية والفكاهة.. وصار كل واحد يلقي بنكتة تتبعها الضحكات.. ومضت ساعات وهم يتكلمون ويسخرون ونسي كلٌّ جراحه.

* * *

* ٣ *

كانت الساعة التاسعة صباحاً حين أفاق عيسى على رائحة البول والبراز وأصوات الموقوفين وأصوات آتية من الخارج.. ثم جاء شرطي وصاح به للمثول أمام المحقق..

انتصب واقفاً على مهل فأحس أن جسمه متيبس متوجع وراح يسير باتجاه الباب لكن الشرطي صرخ في وجهه أن يسرع.. شعر عيسى بضربات قلبه تزداد واضطربت أحشاؤه.. لكنه نظر في جه ذكي ورسم ابتسامة على شفتيه وخرج..

امتثل عيسى أمام المحقق.. واستطاع أن يقرأ اسمه على لوحة فوق المكتب: المحقق أحمد عبد الله الصاوي.. ثم نظر فوق رأس المحقق وقرأ اللوحة المكتوب عليها:

ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب.. فأطرق وأحسّ بانقباض شديد.. كان هناك ثلاثة رجال مساعدين.. واحد يكتب الاستجواب والآخران ينظران إليه نظرة حقد واستهزاء..

فتح المحضر..

سأله المحقق:

- اسمك ومكان إقامتك.. وعملك؟!

أجابه عيسى بهدوء وهو ينظر في عينيه مباشرة:

- اسمي عيسى السوري.. مقيم في حارة النبعة.. ومهنتي طبيب.

حمحم المحقق ثم قال بصوت جدّي:

- تهمتك تحريض على إحراق بيت الخوري ومحاولة قتله وإن مساعدك ذكي قد اعترف بكل شيء.. فالأفضل أن تعترف أنت أيضاً ولا تضيّع وقتنا..

أجاب عيسى بحزم وتصميم مثبتاً عينيه على المحقق:

- الحقيقة أنني أنا الذي قمت بإحراق بيت الخوري.. وإن ذكي لم يساعدني رغم أنني طلبت منه ذلك.. أما قتل الخوري فلم يكن في نيتي أبداً فعل ذلك رغم أنه يستحق القتل..

نظر المحقق والمساعدون بتعجّب:

ـ إذن أنت تعترف بأنك قمت بإحراق بيت الخوري؟!

ردّ عيسى وهو ينظر إلى اللوحة المثبتة فوق رأس المحقق:

ـ نعم أنا فعلت ذلك.

وسأله المحقق بحزم:

ـ ما دور ذكي؟!

ـ لم يكن أحد معي!!

ـ إذن قمت بذلك لوحدك؟

ـ نعم.. لم يساعدني أحد.

ـ ولم يكن ذكي معك؟

ـ نعم لم يكن معي.

ـ إذن لماذا اعترف بأنه قام بإحراق البيت؟

ـ ربما لخوفه من تهمة أسوأ.

تحرّك المحقق في كرسيه ونظر بتجهم وقال بغضب:

ـ ما قصدك.. أننا نتهم الناس ظلماً؟!

ارتسمت ابتسامة على وجه عيسى وقال بهدوء:

ـ لم أقصد ذلك.. أقصد أنه كان خائفاً فأجاب بالإيجاب عن كل ما اتهم به.. أنت تعرف يا سيادة المحقق أن الخوف يجعلنا نعترف بما اقترفنا وما لم نقترف.. الخوف

من الغرب المظلمة..

صاح أحد المساعدين الجالسين قرب المحقق قائلاً:

ـ اخرس.. وأجب على الأسئلة باقتضاب..

وسأله المحقق وهو يدور في كرسيه حتى واجه الحائط وصار ظهره مقابل عيسى:

ـ ولماذا أحرقت بيت الكاهن؟!

ـ لأنني كنت غاضباً.

ـ وحين تغضب يا سيد ـ أقصد يا دكتور ـ عيسى تحرق البيوت؟! هل هذه هي المهنة الشريفة التي تعلمتها في جامعاتنا؟

ـ كنت غاضباً جداً!!

ـ ولماذا كنت غاضباً جداً ـ يا حضرة الدكتور ـ؟!

ـ لأنه شخص سيء.

ـ وكيف عرفت أنه شخص سيء؟

ـ هذا ما أحسست.

ـ وهل أحسست أنك تريد قتله..؟

ـ كلا.. رغم أنه يستحق القتل..

ـ إذن لماذا أحرقت بيته وهو في داخله.. كان من الممكن جداً أن يحترق مع زوجته إذا لم يتداركهم رجال الإطفاء

في الوقت المناسب.

ـ لم أقصد أن أقتله أو أقتل زوجته.

ـ إذن ماذا قصدت.. إشعال نار الفتنة والثورة ضده وضد السلطات؟

نظر عيسى من جديد في عيني المحقق وقال بهدوء:

ـ نعم أنا أفكر أن حارتنا بحاجة إلى ثورة.. إلى إعادة بناء.. إلى نظرة جديدة.. إلى تنظيم جديد..

نحن بحاجة إلى حضارة.. ولا أقصد بذلك مالاً وفيراً وبنايات ضخمة وجسوراً وأبراجاً.. لكن أقصد وعي حارتنا لضعف أبنائها وجروحهم.. ونظرة جديدة للناس الفقراء والمهمشين..

يجب أن نخرج إلى النور هذا الموت الإنساني.. وهذا التشوّه البشري بمحبة ورعاية..

أريد أن أقول لهؤلاء الأطفال الذين يلعبون في الشارع معظم يومهم.. أنتم فيض نور وطفولة رائعة وفرح لا ينتهي.

وأن أقول لنساء الحارة: هذه الطفلة اللقيطة هي حياة مباركة وإن لم تباركها الطقوس والتقاليد..

وأن أقول للرجال: كونوا رجالاً حقاً واستلموا زمام أموركم ولا تجعلوا صعلوكاً كهذا الخوري يتحكّم في مصائر

حياتكم.

وأريد أن أقول لجيراننا المسلمين والدروز وأصحاب العقائد الأخرى: يمكننا أن نرى الحقيقة معاً رغم اختلافنا الاجتماعي والثقافي والديني..

بدا المحقق أحمد عبد الله الصاوي قد تأثّر للحظة بما يقول عيسى لكن سرعان ما تذكّر واجبه.. فقال بفظاظة:

ـ أنت هنا لتجيب على الأسئلة لنعم ولا.. لا نريد محاضرات وفلسفات... وانتبه لما تقول.. إذا شممت رائحة سياسية فإنني سأحيلك إلى المحكمة العسكرية.. وخروجك من هناك لن يكون سهلاً كدخولك..

ـ إذا كان تعريف السياسة هو رغبة الخير للناس فأنا سياسي وهدفي أن أخدم أرضي وأهلي.. أن أراهم سعداء لأكون سعيداً.. و..

وقبل أن يكمل.. انتهره مساعد المحقق قائلاً:

ـ أجب على سؤالك بوضوح!

كان عيسى يبتسم وقد ملأ نور الشمس الداخل من خلال النافذة وجهه بالدفء وتمثلت أمام عينيه السنوات الأربعة الماضية وكيف قضاها في حارة النبعة.. وجوه كثيرة مرت في مخيلته.. وعيون برّاقة كثيرة التمعت في سماء قلبه.. بينما كان مساعد المحقق يخطّ ما يُملي عليه..

بعد لحظات عاد عيسى إلى وعيه على صوت المحقق يقول له:

ـ ستحال غداً إلى المحكمة..

* * *

* ٤ *

وساق المساعدان عيسى إلى غرفة التوقيف.. حيث رأى ذكي جالساً في زاويته واضعاً رأسه بين ساعديه.

اقترب منه وهمس في أذنه:

ـ إذا سُألت من جديد.. أنكر وجودك في منطقة الحريق، أو أنك قمت بأي شيء.. وقل لهم أنني طلبت منك المساعدة وأنك خفت ورفضت..

نظر ذكي بتعجب وقال:

ـ لكنني اعترفت بما قمت به!!

ـ لا عليك.. المهم أن تنكر كلياً الآن ما قلت سابقاً.. ولا تخبر أحداً حتى أهلك.

ـ إذن من قام بإحراق البيت؟

ـ أنا اعترفتُ بكل شيء.

ـ لكنك لم تكن هناك.

ـ اخفض صوتك.. يجب أن لا يعلم بذلك أحد وإلا

سيعيدونك إلى هنا.

ـ ولكن أنا..

وصاح شرطيّ اسم ذكي فانتصب قائماً وسار إليه، وقبل أن يغلق الشرطي الباب نظر ذكي في عيني عيسى وتدحرجت دمعتان كبيرتان على خديه وتحركت شفتاه وهمس:

ـ شكراً لك.

* * *

* ٥ *

مرّ الوقت ثقيلاً جداً على عيسى.. لكنه بدأ يشعر ببعض الراحة حين غاب ضوء النهار بعد ساعات ولم يعد ذكي إلى غرفة التوقيف.. وانزوى بنفسه.. ثم طلب من المساعد قلماً وأخرج ورقة من جيبه وصار يكتب:

لم أكن أعرف

أيها الحب اللامحدود

أنك تدخل زنزانات بهذا الحجم الصغير

وهذا الجو البارد

وهذه الرائحة العفنة

وهذه التهمة المؤلمة..

لم أكن أعرف أنك مهمل إلى هذا الحدّ

أنك متروك ومنسيّ
إنك جائع وعطشان
إنك تنتظر مجرد صديق يسلم عليك
مجرد نور يطلّ
مجرد فرح ضئيل
يغيّر ملل الثواني والدقائق
يزيح عن قلبك ثقل الساعات الباردة
إلهي.. إلهي.. لماذا تركتني
لا أريد أن تتم مشيئتك
فأنا أخاف جداً
من مشيئتك
وأنا ـ ربما ـ لا أحتمل مشيئتك..
دعني الآن أعود
لحياتي العادية
لم أعد أريد أن أتألم أكثر
لم أعد أريد أن أمضي للأمام
أريد فقط أن أعود..
ما أعظم الخوف من الغرفة المظلمة
الخوف من الغرفة المظلمة أسوأ من الموت نفسه

ربما لم يكن قراري صحيحاً
لماذا يجب أن أتألم من أجل حرية شخص آخر
لماذا أدفع ثمن أخطاء الآخرين
وثمن وطن لا يحب أبناءه
يا إلهي..
لا تتركني وحيداً
فأنا أشعر بضعف وانهيار
وبرغبة في العودة..
أعطني قوتك كي أستمر

* * *

* ٦ *

أطل الصبح من النافذة الصغيرة لغرفة التوقيف.. وجاء المساعد بقصعة فيها طعام فأبى عيسى أن يأكل وبقي عيسى منزوياً عن بقية الموقوفين..

وبعد حين صاح المساعد الوقوف عند الباب اسم عيسى قائلاً:

ـ لديك زيارة تحرّك.

جرجر عيسى نفسه.. واندهش حين خرج من الغرفة المعتمة إلى نور غرفة الزيارة ورأى الشيخ محمد زكريا هناك

مع أبو فاروق وأم سميرة.. فرح لرؤياهم وأقبل عليهم وحيّاهم وضمهم قائلاً:

ـ شكراً على زيارتكم.. لماذا تكبدتم تعب السفر من أجلي؟!

قالت أم سميرة والدمع في عينيها:

ـ طمئنا عن نفسك.. أرى وجهك شاحاً..

ـ أنا بخير.. بخير.. لا تقلقي عليّ..

وقال أبو فاروق بصوت خفيض:

ـ هل ضربوك كثيراً..؟!

ـ لا.. لا.. كل شيء على ما يرام.

واقترب الشيخ محمد زكريا منه وأخذه من ذراعه وتنحى به جانباً وقال:

ـ لديّ بعض المعارف في مركز التوقيف الذي سينقلونك إليه وسأكلمهم ليحسنوا ضيافتك...

ابتسم عيسى ورد بمودة:

ـ لا تتعب نفسك يا سيدنا الشيخ.

ـ وأيضاً لقد نظمنا عريضة استرحام بأسماء جميع أهل الحارة وسنقدمها للمحكمة وإن شاء الله ستجري الأمور بشكل حسن..

ـ إن شاء الله.. شكراً لك يا شيخ محمد..

ـ لقد تعبت معنا كل هذه السنين ونرجو أن نستطيع أن نوفيك جزءاً من معروفك.

ونظر عيسى إلى زواره بدعة ومحبة وشكرهم من كل قلبه على اهتمامهم وقبل أن يمضي به المساعد إلى غرفة التوقيف.. التفت إلى أم سميرة وسألها هامساً:

ـ هل طفلتك الصغيرة على ما يرام؟

ابتسمت أم سميرة وقالت:

ـ نسيت أن أخبرك.. عندما استيقظت في اليوم التالي لم أجدها.. يبدو أن أحداً قد سرقها..

واقتربت منه وهمست في أذنه قائلة:

ـ جاءت عائلة محترمة من الضيعة المجاورة ليلاً وطلبتها مني لتربيتها..

فانبسطت أسارير عيسى وتمتم قائلاً:

ـ نشكر الله.. هذا أفضل.. مخططه أفضل من جميع أفكارنا.

❋ ❋ ❋

❋ ٧ ❋

سيق عيسى مع بعض الموقوفين إلى المحكمة، ومثل أمام القاضي الذي راح يسأله الأسئلة نفسها، وكان عيسى يجيبه

باقتضاب ثم أخذ إلى زنزانة كبيرة فيها عشرات الموقوفين.. فوجد لنفسه موضعاً هناك ومدّ «البطانية» ـ التي جلبتها أم سميرة معها إلى زيارته ـ على الأرض، وتمدد على ظهره وراح ينظر حوله ويتمتم لنفسه:

عشرات من الأجساد
كلها مرمية في غرفة واحدة حقيرة
بانتظار من يأتي
ولا يأتي أحد..
تمر الدقائق ثقيلة
تمر الساعات
وربما يمر العمر
ولا يأتي أحد..

تقلب عيسى على جنبه الأيمن ثم الأيسر ثم قام وراح يتمشى بين الأشخاص لعله يرى وجهاً يعرفه.. ومرت ساعات قبل أن يسمع صوتاً يناديه لزيارة.. فمشى بسرعة إلى باب الزنزانة الكبير ورأى هناك باسم وكريمة ورانيا فدمعت عيناه ومدّ يديه من خلال قضبان الباب وصافحهم بحرارة..

قال لباسم:

ـ كيف حالك الآن؟

أجابه:

ـ أنا بخير.. إذا كنت أنت بخير.

ونظر إليهم كلهم بعطف قائلاً:

ـ أشكركم على مجيئكم.. كنت بحاجة إلى أن أتكلم مع أحد.

قالت كريمة بحنان ودلال:

ـ الآن تستطيع أن تساعد الضعفاء أكثر لأنك تفهمهم أكثر وأنت واحد منهم.

أطرق عيسى وقال بصوت خفيض:

ـ في الحقيقة يا كريمة.. في لحظات الضعف لا نستطيع أن نجد المعنى فيما نعيش.. وكل ما نسأل هو الهروب إلى التوازن.. إلى القوة.. وحين نصبح أقوياء نستطيع أن نعطي الأفكار القوية للضعفاء..

وقال باسم وهو يشد على ساعده:

ـ لم أتوقع أن أراك ضعيفاً وخائفاً في يوم من الأيام.. أنت الذي علمتنا أن نتخطى الضعف وأن نصمد حين تكوينا نار الحب..

رفع عيسى رأسه ونظر في عيني باسم وقال بصوت متقطع:

ـ أنا مضطرب حقاً.. أنا مضطرب يا باسم.

قالت رانيا وهي تنظر في عينيه بمحبة وحنان:

ـ أنت تذكر ما قلنا ذات يوم.. عندما تبتعد عن العيون تقترب أكثر.. وعندما ترحل تصير ساكناً بشكل أعمق في قلوب من يحبونك.. وهناك كثيرون يحبونك.. وقد نظمنا رسالة بتواقيعنا جميعنا وسنقدمها للمحكمة.. ونحن متأكدون أن الأمور ستكون أفضل.

وتنفس عيسى الصعداء.. وابتسم وجهه وأراد أن يمازحهم فقال:

ـ وماذا فعل الذين لا يعرفون الإمضاء بالقلم؟

فردّ باسم ضاحكاً:

ـ الله يديم الحبر الصيني والبصمات.

* * *

عاد عيسى إلى مكانه في الزنزانة ممتلئاً ببعض عزاء رغم الضيق الجاثم على صدره وانزوى في ركن منفرداً وراح يكتب:

يقتلني الحب
ولا أندم عليه
أشعر برغبة في الموت لأجل الآخرين
وأفزع أحياناً من مجرّد أن أتذكّر
أنه يمكن أن أتعذب لسنين طويلة

دون رجاء
ودون دفء
ودون حب
بدأت أشعر بالسلام..
أتخيل الطبيعة في الخارج جميلة وصافية..
أتخيل كل شيء يسبّح الله
كل الطيور والأزاهير
كل الغيوم والنجوم
وقطرات المطر..
حتى حجارة الطريق
حتى الدقائق
والضجر
كل شيء يسبّح الله
كلها تغني أغنية حب
لله الذي هو حب
للحب اللامحدود..
وينتابني أحياناً هذا الفزع
فأريد أن أتراجع
أطلب أن ينتهي كل شيء

أتمنى أن أبقى على سطح التربة
وأرفض أن أموت
لا أريد أن أحتمل برد التربة
أن أحتمل الغوص في طبقات الأرض
أن أتعرى..
أن أفشل..
أن يموت كل شيء فيّ عدا الحبّ
لأن الحب لا يمكن أن يموت..

* * *

استيقظ عيسى على نور شعاع ضعيف من الشمس.. وشعر بسلام يغمر قلبه.. وحين استدعي إلى المحكمة بعد حين، وقف أمام القاضي وهو منبسط الأسارير.. وقال له القاضي:

- يبدو أن كثيراً من الناس في حارتكم قد شهدوا لك بطيبة القلب والسيرة الحسنة.. لكننا ما زلنا غير مقتنعين من أهدافك ولا نعتقد أنك تفيد المجتمع.. بل نرى كثيراً من الأذى للناس والمجتمع.. ومثال ذلك الحريق الذي تسبّبت به.. لذلك نخفض مدة سجنك إلى ستة أشهر على أن توقّع هنا على توقفك عن مزاولة أي نشاط اجتماعي

خارج عملك في مهنة الطب.. وإذا لم تمتثل لقرار المحكمة فإننا لدينا السلطة على إيقاف شهادتك وإحالة أوراقك إلى محكمة عليا..

نظر عيسى إلى يساره حيث كان كثير من أهل الحارة حاضرين وحدق في عيون رانيا وكريمة وباسم وأم سميرة أبو فاروق والشيخ محمد.. وأحس أنهم عائلته الصغيرة.. وهزّ الجميع رؤوسهم أن يوافق.. فوقّع اسمه على الأوراق التي قدمها مساعد القاضي إليه.. ولم ينبس ببنت شفة.. ثم غادر القاعة يرافقه مساعدان إلى غرفة التوقيف ومن هناك نقل إلى السجن المركزي..

* * *

الفصل الأخير

❊ ١ ❊

سافر عيسى ورانيا بعد ذلك بقليل. . وكتب عيسى إليّ من بلده الجديد هذه الكلمات:

أغضُّ الطرف
أطرق خجلاً
من سيدة كنت أعبدها
أقول لها:
لستِ لي
أنا لا أحبّكِ
لأن العار يلبسك
يغطّيكِ
يتغلغل فيك
أرحل عنها إلى البعيد
ويكويني المنفى
تصلبني الغربة
يحرقني البعد

ولا أريد أن أشفى
ولا أريدْ
أن أضمّها من جديدْ
أو أقبّل ثغرها
فهي ليست لي
وأنا لست لها.
أبحث في كل مكان
عن سيدة أخرى
تعوضني عن حبها والحنانْ
أعيش معها بعض العشق
فلا أجد إلا الخيبة
لا شيء يحل محلها
لا شيء يشبه ظلّها
لا شيء يعوضني
عن سيدة
هي وطني

❊ ❊ ❊

* ٢ *

أما حارتنا فقد تغيّرت عبر الزمن.. وأول ما حصل أن الناس رفضوا استقبال ذاك الخوري من جديد في الحارة، فتمّ نقله إلى مدينة أخرى.. وأسسوا مجلس شورى وطلبوا من الحكومة أن تعطيهم الحق بانتخاب مختار يساعدهم على حل مشكلاتهم واختاروا أبو صادق، وهو رجل جليل يحترمه الجميع في ضيعتنا وهو يحترم ويحب الناس، صغارهم وكبارهم.. أما فاروق فقد رأيته في آخر مرة زرت فيها الحارة ولم يكن قد تغيّر كثيراً، فهو ما يزال يحب الغناء والطرب إلا أنه بدأ يأوي إلى بيته مبكراً قليلاً..

أما أم سميرة فما زالت تذكر كل يوم عيسى بالخير وتخبر عنه الناس الجدد في الحارة..

تزوّج أخي جودت فتاة من الحارة منذ سنتين، وهما سعيدان معاً وأنجبا طفلة حلوة سمياها حياة..

أما أخي ذكي فقد تغيّر كثيراً.. ولم نسمع عنه أية شكوى منذ سنين، وهو يعمل بجد واجتهاد، وبعدما أنهى خدمة العلم، فكّر بالكهنوت لكنه شعر أنه لا يستطيع أن يكون كاهناً مثالياً فعدل عن الفكرة وهو ما يزال يعمل حتى الآن ويشهد الناس له بحسن السيرة والأخلاق.. وقد سمعت منذ أسبوع أنه ينوي خطبة فتاة من الحارة أيضاً.. هاجر كريم إلى الخليج ليعمل ويجمع المال ليبني مستقبل.. وقد اتصلت

به منذ أيام وفرحنا بالتحدث معاً، وتذكر أخبار الحارة والناس..

ترك الشيخ محمد حارتنا ووجد لنفسه مع عائلته ضيعة مجاورة هادئة.. وهو ما يزال مخلصاً لخطه الروحي والفكري كما يبدو في كتبه الأربعة التي وضعها رغم الصعوبات التي واجهته..

وكبرت أنا وكريمة.. وبعدما أنهيت علاجي الكيماوي.. تحسنت صحتي وعاد إليّ شعر رأسي وعادت قوتي..

ثم دعيتُ لخدمة العلم وبقيت كريمة تهتم بأخوتها وأبيها وتنتظرني كي أعود.. لنتزوج..

وعدت إليها والتقينا من جديد.. وبدأنا نعمل.. وتزوجنا بعد ثلاث سنوات وسافرنا إلى المدينة لفرصة عمل جيدة لكلينا.. وبنينا بيتنا على مهل.. ثم أنجبنا عيسى وصار عمره اليوم سنة واحدة..

وما زلنا نرسل المكاتب لعيسى ورانيا.. وهما يكتبان لنا أيضاً لكن يبقى هناك شيء أعمق من الكلمات التي نقولها ومكان نلتقي فيه أهم من كل الخرائط.. نفهمه ونعيشه رغم البعد ورغم السنين..

وكتب عيسى في رسالته الأخيرة إلينا

حين نسير معاً في الشوارع ونرى الحمام حولنا لا يخاف بل

يلتقط حبّه بسلام، نذكر كيف يهرب الحمام من الإنسان في بلدنا وكيف يخاف الإنسان من وطنه..

ما زلنا نبحث عن وطن لا نخاف منه..

❋ ❋ ❋

تمت

١٣ حزيران ٢٠٠٢